كتاب حقيقة الدنيا وآفاتها

الباب الأول: في صورة الدنيا وأخلاقها.

الباب الثاني: في أمثلة الدنيا.

الباب الثالث: في شدائد الدنيا.

الباب الرابع: في المبكيات.

الباب الخامس: في حقيقة الدنيا.

الباب السادس: في الزهد في الدنيا.

الباب السابع: في سبب رغبة الناس في الدنيا.

الباب الثامن: في حكايات الناس في الدنيا.

الباب التاسع: في مقالات الناس في الدنيا.

الباب الأول

في صورة الدنيا وأخلاقها

اعلم يا أمجد الأمجاد وأجود الأجواد أن الدنيا معيوبة، وهي رأس الفتن، وشجرة المحن أم الخبائث، كما قال ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»، وتسمى «والدة الموت» تقتل أولادها بنفسها، تهب ثم تسترجع، تعد ولا تفي، تنادي كل يوم أنا المركب القموس[١] أنا الفتنة الدهياء، أنا بيت الأفاعي أنا حية الوادي، أنا أهين من أكرمني وأكرم من أهانني[٢] وأخذل من توكل علي، فالدنيا جيفة، وبنوها مثل الكلاب يتكالبون ويتهارشون على جيفها تهارش الكلاب على الجيف، فما رُئِيَ في عالم اللّه تعالى أخلف وأكذب من الدنيا، ولقد كان نبي اللّه عيسى عليه الصلاة والسلام تمنى أن يرى صورتها وخلقتها[٣]، حتى كان يوما في ساحل البحر فرأى شخصا على صورة عجوز شمطاء شوهاء محدودبة الظهر منحنية الكتف إحدى يديها ملطخة بالدم، والأخرى مختضبة بالحناء، وأنيابها كأنياب الفيل، وعليها ثياب معصفرة، وقد عطرت نفسها، وعليها برقع قد سترت وجهها به، فتعجب عيسى من ذلك فقال: من أنت؟ قالت: أنا الدنيا التي كنت تسأل من اللّه عز وجل أن تراني، فقال عيسى عليه السلام: ما الذي حدب ظهرك، قالت: كر الأيام والليالي، فقال: ما هذا الثوب المزعفر؟ قالت: حتى يغتر بي الأعداء، ويقبلوا عليّ، فلو رأوا باطني ما التفتوا إلي، فقال: ما هذا البرقع والنقاب؟ قالت: حتى لا تُرَى عيني، فلو أن أحدا رأى صورتي لما نظر إلي، فقال: لِمَ خضبت هذا الكف؟ قالت: أخطب زوجا، قال: ما هذا الكف الملطخ بالدم؟ قالت: قتلت البارحة زوجا،

---

(١) القموس: هي في الأصل البئر تغيب فيها الدلاء من كثرة مائها. "القاموس المحيط".
(٢) أي: زهد فيها وتجافى عنها وتركها لأهلها يتصارعون عليها وهي جيفة قذرة.
(٣) أي: مثل صورتها ومعناها ما لو تجسدت.

فقال: هل لزوجك المقتول قَوَدٌ، قالت: لا، ولقد قتلت مثله ألفا، وما باليت بذلك ولا أبالي، وسأقتل هذا ولا أبالي، فالويل لمن اغتر بالدنيا ثم الويل له، يا هذا، الغمر من اغتر بالعمر، وقف رسول الله ﷺ على مزبلة فقال: «هلموا إلى الدنيا» وأخذ رقعة قد بليت على تلك المزبلة وعظاما قد نخرت فقال: «هذه الدنيا» في الخبر: «إن إبليس كل يوم يبيع الدنيا ويقول: من يشتري من يضره ولا ينفعه، ويهمه ولا يسره؟ فقال بنو الدنيا: نحن نشتريها، فقال: لا تعجلوا فإنها معيوبة، فقالوا: لا بأس، فيقول: حتى أعلمكم عيبها، هي غدارة غرارة، وسارقة منغصة، لا عهد لها، فيقولون: لا بأس، فيقول: حتى أعلمكم ثمنها، إن ثمنها ليست الدراهم، لكن ثمنها نصيبكم من الجنة، فإني اشتريتها بنصيبي من الجنة، ولعنة الأبد، فيقولون: لا بأس، فيقول: بئست التجارة، اذهبوا فقد أحرقتم أنفسكم»، وقال الشافعي ﷺ: «لو أن الدنيا علق[1] يباع في السوق لمَا اشتريته برغيف لما أعلم فيها من الآفات».

وصورة الدنيا وحقيقتها تفصح بهذا، فقد روى أن غلاما في بني إسرائيل كان ابن ملك، فتوفي أبوه وخلف له مالا كثيرا فأنفق الجميع وخرج إلى البادية، فأتى على قوم زرعوا زرعا حتى إذا استحصد زرعهم غَرَّقوه، ثم مشى فإذا برجل يحاول صخرة ليحملها، فثقلت عليه فلم يقدر على حملها، فجاء بصخرة ثانية فوضعها عليها فخفت عليه فحملها، ثم رأى شاة قد اكتنفها خمسة رجال، فرجل راكب عليها، وهي راكبة على رجل، وآخر قد أخذ بذنَبها، وآخر قد أخذ بقرنيها، وآخر يحلبها، ثم مشى فإذا بكلبة في بطنها جراء[2] يعوون، فقال: ما أعجب ما رأيت، ثم دخل المدينة فإذا شيخ بيده عصا، فقال: يا شيخ رأيت في طريقي

---

(١) العلَق: بالكسر، النفيس من كل شيءٍ. "القاموس المحيط". والمقصود العبد النفيس الرائج بيعه في السوق لكثرة منافعه.

(٢) الجراء: جمع (جَرْو) وهو الصغير من الكلاب.

عجائب، قال: كيف؟ قال: رأيت قوما زرعوا زرعا من صـــفتهم، كيـــت، وكيـــت يزرعون ويغرقون، قال: هذا مثل أراد اللّه تعالى أن يريك قوما عملوا الصالحات، ثم ختموا بالمعاصي فأحبط اللّه أعمالهم، وأما الذي لا يطيق حمل صخرة فيـــضم إليها ثانية فيحملها، هذا مثل رجل عمل خطيئة عظمت عنده وكبرت لديه فلم يقدر على حملها، فإذا عمل خطيئة أخرى هانت عليه، فإذا عمل ثالثا تعود ذلك واسود قلبه فلا يشعر بالختم والطبع، وأما الشاة فهذا مثل الدنيا فالراكبون عليها ملـــوك الزمان، والراكبة عليهم هم المساكين والفقراء الذين يتكففون الناس، والذي قـــد أخذ بذنبها هو الذي قصر عمره وأجله ولم يبق منه إلا القليل وهـــو لا يـــدري، والذي أخذ بقرنيها فالذي لا يصيب المعيشة إلا بالتعب والكد، وأما الحالبون مـــن ضرعها فالتجار وأصحاب الأرباح، وأما الكلبة فهو الذي يتكلم في غير أوانه، قال الغلام: ها قد فهمت، فأين منزل الفاجرة؟ قال الشيخ: أفٌ لك قد وعظت فلم تتعظ، وزجرت فلم تنزجر، أنا ملك الموت، فقبض روحه وعجله إلى النار، فهذه صورة الدنيا يا معشر العقلاء، فمن يرغب في شرائها؟.

الباب الثاني

في أمثلة الدنيا

في الأثر: أن أربعين رجلا من الحكماء جلسوا يتفاوضون في أمثلة الـــدنيا، فاستقر رأيهم في الأخير أن أشبه شيء في الدنيا أضغاث أحلام، وقد قيـــل: مثـــل الدنيا كالرباط[١] يحل قوم ويرحل قوم. وقال العلماء: الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، في كل ساعة ستمائة ألف نفس يموتون، وستمائة ألف يولـــدون، ويُعَـــزُّ ستمائة ألف، ويذل ستمائة ألف.

---

(١) الرباط: مكان ينزل به الناس ويبيتون ويمكثون الشهور والسنين أو الأيام به.

مثال آخر: هي كالحية لين لمسها، قاتل سمها.

مثال آخر: هي كالنائحة، كل يوم تنوح في دار.

مثال آخر: هي كالمرأة الفاجرة، يوما عند بيطار ويوما عند عطار.

مثال آخر: هي كالثوب يشق من أوله إلى آخره فيبقى معلقا بخيط في آخره، فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع.

مثال الإنسان والأمل والأجل كمثل شخص وراءه الأجل وأمامه الأمل فبينما هو يطلب الأمل إذ أتاه الأجل فاحتبسه.

مثال آخر: هي كالمرأة الساحرة تريك من نفسها أنها عاشقة لك، وهي هاربة منك وأنت تظن أنها موافقة وهي مفارقة كظل الشمس يعتقد الإنسان أنه ساكن وهو متحرك على الدوام، وهذا يا معشر العقلاء مثال العمر ينقص في كل ساعة وأنتم لا تشعرون.

مثال آخر: هي كالمرأة الفاجرة تغمز الناس بعينها، وترى أنها تقضي حوائجهم ثم تحملهم إلى بيتها فتهلكهم.

مثال آخر: هي كالمرأة الحسنة وتحت ثيابها سرقين[1] ظاهرها عامر، وباطنها خراب، فظاهر الدنيا عيش وجمال وتمتع وأنس، وباطنها محن وإحن وفتن ومصائب وشدائد، غم في غم وهم في هم.

مثال آخر: هي كطريق المسافر، فأول منزله المهد، وآخره اللحد، فكل سنة منزل، وكل شهر فرسخ، وكل يوم ميل، وكل نفس خطوة، وهم[2] يمرون على الدوام، والناس مسافرون، فمن مسافر في المنزلة، وآخر بقي له فرسخ، وآخر بقي له ميل، وآخر خطوة في دار الغرور.

---

(١) السرقين: بكسر السين المهملة وتشديدها، وقد يفتح، مُعرَّب: سِرْكين.
(٢) في الأصل المطبوع قديمًا: (وهن)، والصحيح (وهم).

مثال آخر: وكمن أكل طعاما شهيا وأسرف في أكله حتى أتخمه وأفسد معدته، ثم جلس خذلان نادما يوبخ نفسه فيما فعل، ويقول: ذهبت اللذة وبقيت التبعة بـــذلك فكل طعام يكون أطيب وأشهى فتفله يكون أنتن وأفضح، فكل من كانت لذتـــه فـــي الدنيا أكثر، وماله أوفر وعيشه أهنأ، فحسرته أعظم ممن دون ذلك، وكل من كانت ضياعه وأملاكه وخدمه وحشمه ودرهمه ودينار أكثر تكون له الغمرات أعظم.

مثال آخر: مثل أبناء الدنيا كقوم نزلوا دار قوم ضيافة، فرأوا دارا مزخرفة وأواني موضوعة، وفرشا مبثوثة، فمن كان عاقلا يكون همه الانصراف عـــاجلا، ومن كان أحمق يستطيب المكان ويلزم الموضع لا يبرح منه، وينسى أنه مـــدعو وأنه ضيف، والضيف مرتحل فكل من طمع في مال المضيف يكون مغموما أبـــدا، وكل من يتبلغ ويخرج يكون مريحا مستريحا، فكذلك صاحب الدنيا أمر بـــالتزود، فإذا طمع في الخلود والمقام فقد طمع في غير مطمع، والطمع يهدي إلى طبع ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [النحل: ١٠٨].

مثال آخر: الدنيا كمثل قوم نزلوا في سفينة فاقتسموا المواضـــع، فبلغـــوا جزيرة فنزلوا لقضاء حاجة، وصاحب السفينة ينادي: أنا النذير والموت المـــوت المغير، إلا عجّلوا عجّلوا فقد أزف الرحيل، فتفرقوا ثلاث فرق: فرقة كانوا أعقـــل الناس تطهروا ورجعوا فوجدوا مكانهم خاليا فجلسوا واستراحوا. وفرقة اشتغلوا بنضارة الجزيرة والنظر إلى مزخرفاتها وأعاجيبها من أفانين الطيور والأصوات، فلما انصرفوا وجدوها قد امتلأت بالقوم فضاقت عليهم الأرض بما رحبت فجلسوا على التعب الشديد. وفرقة أخرى كانوا أحمق الناس وأجهلهم اشتغلوا بالنـــضارة والحديث وجمع آلات الجزيرة وأخذها حتى سيقت السفينة، ولـــم يـــسمعوا نفيـــر صاحبها فبقوا في الجزيرة مقيمين متحيرين حتى هلك بعضهم بالجوع وبعـــضهم بافتراس السباع.

فالفرقة الأولى مثال المؤمنين المتقين، والفرقة المتخلفة مثـــال الكـــافرين

المتخلفين، والفرقة المتوسطة مثال العاصين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا؛ فهذه أمثلة الدنيا ولو طولناها لطالت، ولكن خير الكلام ما قل فدل ولم يطل فَيُمِل، والله تعالى أعلم.

الباب الثالث

في شدائد الدنيا

قال النبي ﷺ: «ارحموا ثلاثة: عزيز قوم ذل، وغنيا افتقر، وعالما تلاعب به الجهال». وتذاكر بعض الصحابة شدائد الدنيا فقال بعضهم: الفقر، وقال آخرون: السفر مع الفقر، وقال آخرون: الغربة مع المرض والفقر، ثم قال آخرهم[١]: أشدها أن يترك خادم المريض صاحبه على ظهر الطريق ويهرب منه. قال الحسن: «جهد البلاء أربعة: كثرة العيال، وقلة المال، وجار السوء، وزوجة تخونك». وقال الإمام الشافعي ﷺ: «الذل في الدنيا أربعة أشياء: تذلل الشريف للدنيء لينال منه شيئا، وتذلل الرجل للمرأة لينال من مالها شيئا، وتعير المُعَيَّر بلا فسحة، وحضور المجلس بلا نسخة»[٢]. وقيل: «ثلاثة أشياء ليس لطبيب فيها حيلة: الحماقة[٣]، والطاعون والهرم». وقيل: «أشد شيء في الدنيا فراق الأحبة».

والدليل على أن ألم الفراق أعظم: أن زليخا ما قطعت يدها والنساء قطعن أيديهن لما علمن من فراق يوسف عليه السلام، وزليخا علمت أنه مقيم عندها، وقيل: أشد شيء في الدنيا الفقر والمرض والهرم. وقيل: الهم مع العيال، وقيل: الغربة مع العلة، وقيل: أشد شيء سؤال اللئام، وقيل: رفيق يرافقك ولا يوافقك ولا يفارقك. وقيل: أشد شيء مجالسة الأضداد ومعاشرة الأعداء، وقيل: أشدها أن

---

(١) لفظة (آخرهم) زيادة على أصله يستلزمها السياق.

(٢) فيلتمس النظر في نسخ أصحابه من الكتاب الذي يقرأونه على الشيخ مع انشغال كل واحد منهم بالنظر في نسخته والعناية بنفسه، فيصيبه الذل والخجل.

(٣) وفي الشعر: لكل داءٍ داوءٌ يستطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها

ينظر بعينه إلى زوال نعمته، وقيل: أشده سوء الخلق، فإن صاحبه يكون في جهد البلاء، وقيل: جهد البلاء كثرة العيال مع قلة المال، والأشياء التي تقتل سراج لا يضيء، ورسول بطيء، وبيت يكشف، ودمدمة الخادم.

حكاية: لما خلق اللّه الأرض كانت ملساء متزلزلة، فأمر جبريل عليه السلام أن يسكنها بقدميه فلم يقدر، فخلق اللّه الجبال الراسيات مسامير الأرض، فاستقرت. فقالت الملائكة: يا رب هل خلقت خلقا أعظم من الجبال؟ قال: نعم الحديد يكسر الجبال، فقالت: يا رب هل خلقت خلقا أشد من الحديد؟ قال: نعم النار تذيب الحديد. قالت: يا رب هل خلقت خلقا أشد من النار؟ قال: نعم التراب، قالت: يا رب هل خلقت خلقا أعظم من التراب؟ قال: نعم الريح يدفع التراب. قالت: يا رب هل خلقت خلقا أعظم من الريح؟ قال: نعم الآدمي يحترس من الريح. قالت: يا رب هل خلقت خلقا أعظم من الآدمي؟.قال: نعم النوم يصرع الآدمى. قالت: يا رب هل خلقت خلقا أعظم من النوم؟. قال: نعم الغم يذهب النوم. قالت يا رب هل خلقت خلقا أعظم من الغم؟. قال نعم: الموت يبطل الغم والنوم ويبطل كل حركة، فلا شيء أشد وأعظم من الموت. ويقال: خوف الهموم والهرم أشد من خوف الموت؛ لأن في الممات راحة من كل شدة، والشدائد كلها في الهموم، واللّه أعلم.

الباب الرابع

في المبكيات

قال النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، وما تلذذتم بالنساء، ولخرجتم إلى الصعداء تجأرون إلى اللّه ورسوله». وقال: «لو تكاشفتم لما تدافنتم». وقال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أبلاه، وعن شبابه فيم أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه فيم عمل فيه». وقال: «من اكتسب مالا من حرام لم تقبل له صدقة، ولا عتق، ولا حج ولا عمرة. وكتب اللّه عليها أوزارها، وما بقي بعد موته كان

زاده إلى النار». مسكين ابن آدم يؤاخذ عن الكل ويسأل عن الكل. وقال: «من غش مسلما في بيع أو شراء فليس منّا، ويحشر يوم القيامة مع اليهود والنصارى»، فكيف بمن يأخذ ماله ويريق دمه، وإياك وشرب الخمر، فقال ﷺ: «شارب الخمر كعابد وثنٍ، من مات ممن شربها لقى اللّه سكران، ويدخل القبر سكران، ويدخل النار سكران».

فإن ابتليت بذلك فتدارك التوبة والكفّارة، والإحسان إلى العلماء، وكرامة الفقراء. ومن يعلق سوطا بين يدي سلطان جائر جعله اللّه حية طولها سبعون ألف ذراع، فتسلط عليه في نار جهنم خالدا فيها، ومن اغتاب مسلما بطل صومه ونقض وضوءه، فإن مات وهو كذلك مات كالمستحل لما حرّم اللّه، ومن شرب الخمر في الدنيا سقاه اللّه من سمّ الأساود[1] وسمّ العقارب شربة يتساقط لحم وجهه في الإناء، ويؤمر به إلى النار. وإن اللّه حرّم الجنة على المنان، والبخيل، والمختال والقتات[2]، ومدمن الخمر، واللّه تعالى أعلم.

الباب الخامس

في حقيقة الدنيا

قال النبي ﷺ: «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما كان للّه»، فليعلم أن جميع ما في الدنيا ثلاثة أقسام: قسم ظاهره وباطنه من الدنيا، ولا يجوز أن يكون من الآخرة، وذلك مثل المعاصي والمقاصد السيئة، وكذلك التنعم في المباحات والتمرغ في الشهوات، كل ذلك من الدنيا المحضة، والقسم الثاني في أشياء هي بصورها للّه تعالى، ولكن لا يجوز أن تكون بمعناها من جملة الدنيا، وذلك ثلاثة

---

(١) الأساود: جمع (الأسود)، وهي الحية العظيمة.

(٢) القتات: الذي ينم الحديث، أي: النمام الذي ينقل الحديث بين الناس بغرض الإفساد بينهم.

أنواع: الذّكر والفكر في آلاء اللّه عز وجل، ومخالفة الشهوات، فإن كانت هذه الأشياء بنية للّه فهي سبب الآخرة فتكون للّه تعالى، وإن كانت بنية أن ينظر الناس إليه بعين الوقار، ويشهدوا له بالصلاح، أو مقصوده من الذكر طلب العلم ليكتسب به جاها ومالا، أو يترك الدنيا لطمع أن يقال زاهد وورع، فهذا كله من الدنيا الملعونة المذمومة. والقسم الثالث: ما هو بصورته وظاهره من حظ النفس وحقيقة الدنيا، ويجوز أن يكون بقصده للّه تعالى ونيّته مثل أكل الطعام؛ يستعين به على عبادة اللّه تعالى، ويطلب النكاح على قصد أن يكون له ولد يعبد اللّه تعالى، ويطلب المال بنية أن يستغني به عن الحرام، وعن الحاجة والسؤال وفراغ القلب.

فالدقيقة في الباب أن حقيقة الدنيا ما هو حظ النفس في الحال، ومجرد ذلك شهوة ونهمة لا تعلق له بالآخرة أصلا، وكل ما هو عمل الآخرة ومهمات أمرها كعلف الدابة في طريق الحاج، وإعداد الطعام لأجل الإفطار[1]، فليس من الدنيا لأن اللّه عز وجل بيّن الدنيا وبيّن حقيقتها في خمسة أشياء، نص عليها في قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ﴾[الحديد: ٢٠]: فكل ما هو من الآخرة فليس من الدنيا، وما هو لأجل الدنيا وحظ النفس فذلك للدنيا المذمومة فاحذرها فليس للآخرة، والسلام.

الباب السادس

في الزهد في الدنيا

اعلم أنّ اللّه عز وجل توعد على الرغبة في الدنيا بعظائم لم نجده أوعد في شيء غيره في قوله: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى الْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] ثم قال: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الْحَيَوٰةِ

(١) أي: الإفطار من صيام الفرض أو التطوع أو القضاء.

ٱلدُّنيَا ﴾ [التوبة: ٥٥] قال العلماء: يعذبهم بجمعها، وتزهق أنفسهم بحفظها، وماتوا وهم كافرون بمنع الحق منها، ثم أخبر اللّه تعالى أن فتنة الدنيا لا يعلمون حقيقتها حتى يتوسدوا في قبورهم على التراب: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾ [التكاثر: ٣] في القبر؛ وقال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ﴾ [الكهف: ١٠٣] أصحاب الدراهم الذين يضعون الدرهم على الدرهم والدينار على الدينار، وقال ﷺ: «صلاح هذه الأمة الزهد واليقين، وآخر فسادها البخل والأمل». وقال ﷺ: «إنّ اللّه يبغض كل جموع منوع أكول ضروط شروب»[1] وقال: «إن للّه تعالى ملكا ينادي كل يوم: دعوا الدنيا لأهلها - ثلاث مرات - فمن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه ولا يشعر» وقال: «إذا عظمت أمتي الدنيا نُزِعت هيبة الإسلام منهم، وإذا تركت أمتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حُرِمت بركة الوحي». وقال: «إذا رأيت اللّه تعالى يعطي العبد على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج».

فصل: إن الرغبة في الدنيا تورث حب المال، وحب المال يورث استحلال محارم اللّه عز وجل، واستحلال محارم اللّه عز وجل يورث غضبه، وغضب اللّه تعالى داء لا شفاء له، فإن الخلق في الدنيا بين الحسنات والسيئات والشهوات واللذات والتمتعات، وفي الآخرة بين الحساب والدرجات والدركات وغير ذلك، فاترك السيئات حتى تنجو من الدركات، واترك اللذات والشهوات حتى تنجو من الحساب، واعمل الحسنات حتى تبلغ الدرجات.

قال القفال الشاشي - رحمه اللّه تعالى ورحم أمواتنا وأموات المسلمين كافة -: دخلت بغداد فرأيت الشبلي فقلت: في الدنيا الأشغال، وفي الآخرة الأهوال، فأين الراحة؟ قال: دع أشغالها تنج من أهوالها، فعلمت أنه فاضل، فقلت: القسام إذا قسم يتفاوت بين المقسوم، فقال: إن كان تصرفه في ملكه فيقسم كيف شاء، أشار إلى أنه مالك متصرف في ملكه أغنى قوما وأفقر آخرين، وأعز طائفة وأذل

---

(١) الضروط: كثير الضراط، وهو الريح يخرج لكثرة الطعام.

قوما، وجاء رجل فقال: يا رسول الله، ما الدنيا..؟ قال: «حلـم المنـام وأهلهـا مجازون معاقبون»؟، قال: كيف يكون الرجل فيها؟ قال: «بمقـدار التخلـف عـن القافلة»، فقال: كم بين الدنيا والآخرة؟ قال: «غمضة عين». فدخل فلم يره، وقال: «هذا جبريل أتاكم يزهدكم في الدنيا، فعليكم بالزهد في الدنيا».

وكتب إلى أخ له فقال: صف لي أمر الدارين فكتب إليه: بسم الله الـرحمن الرحيم.. يا سائلي عن الدارين، أما الدنيا فأحلام، وأمّا الآخرة فيقظة، والمتوسـط بينهما الموت، ونحن في أضغاث أحلام.

لما توعد الدنيا به مـن شـرورها يكون بكاء الطفل سـاعة يولـد[1]

وقيل: الدنيا فرصة والناس حمالون، فقوم يحملون أعمالهم إلـى الجنـة، وقوم إلى النار، فإن قيل: ما العلة في رغبة الناس في الدنيا مع كثرة غمومهـا؟ فالجواب: قلة معرفتهم بعيوبها، فلو كشف الغطاء لهربوا منها، فإن قلت ما علـة زهد الأمراء في أبواب العلماء ورغبة العلماء في أبواب الأمراء؟ فأقول: أما زهد الأمراء فلقلة معرفتهم بفضيلة العلم، وأمّا رغبة العلماء فلمعرفتهم بفضيلة المال، وقيل: من جمع المال وأقبلت عليه الدنيا، ثم منع المستحقين حقهم وادعى حقيقة أمره، وزعم أنه عبد الله كان من المستهزئين بنفسه، والله غفور رحيم.

الباب السابع

في سبب رغبة الناس في الدنيا

اعلم أن سبب ذلك قلة اليقين واستيلاء الغفلة، فلو تيقنوا أنّ دار الآخرة هي الحياة، وأن العيش عيش الآخرة، وأن الأنبياء أفطن منهم حيـث تركـوا الـدنيا وآثروا الآخرة عليها؛ لزهدوا فيها، ولكنهم اغتروا بعاجل الدنيا يقينا، واعتقـدوا أن الآخرة خير وأبقى تقليدا. اللهم إلا رجال الصدق فإنهم كوشفوا تحقيقـا، فلـو

---

(١) البيت من بحر الطويل.

كشف الغطاء ما ازدادوا يقينا[١]، قيل: الناس عمروا الدنيا وخربوا الآخرة فيكرهون النقلة من العمران إلى الخراب، قول آخر: إن الروح أُلِفَ الجسد وتعود صحبته، وأشد شيء في الدنيا الفراق، وفي رغبة الدنيا الصحبة والاجتماع، وفي رغبة الآخرة التفرق والافتراق؛ فلهذا يرغبون في الدنيا. قول آخر: غرهم في ذلك طول إمهال اللّه تعالى واستدراجه لذوي المعاصي، فلو عاجلهم عند عظائم الأمور لزهدوا فيها، ولكنهم أمهلوا حتى ظنوا أنهم أهملوا. قول آخر: إنما رغبوا في الدنيا اغترارا بسعة رحمة اللّه تعالى، وتوكلوا على عظم عفو اللّه، فقالوا: هو لا يعذبنا مع قلة عددنا في جنب الكفار، ولو عذبنا بذنوبنا فأي الناس ليس له عيوب؟ وأي عبد لك لا أَلَمَّا. المصيبة إذا عمت هانت. قول آخر: الأرض أمهم؛ لأنهم خلقوا منها فيكرهون مفارقة الأم، واللّه ذو الفضل العظيم.

الباب الثامن

في حكايات الناس في الدنيا

رأى سليمان عليه السلام بلبلا يغرد على شجرة، فضحك، ثم قال: أتدرون ما يقول هذا الطائر؟ قالوا: أنت أعلم يا رسول اللّه، فقال: يقول: أكلت نصف ثمرة فشبعت منها؛ فعلى الدنيا السلام.

(حكاية): روي أن يهوديا صحب عيسى عليه السلام فأعطاه ثلاثة أرغفة: فأكل اليهودي أحدها، فقال له عيسى عليه السلام: من أكل الرغيف؟ فقال: لا أدري، فذهب حتى استقبله ظبي فدعاه عيسى فجاء إليه فذبحه وشواه وأكلوا ثمّ قال: قم بإذن اللّه تعالى فقام، فتعجب اليهودي. فقال عيسى: بحق الذي أراك هذه المعجزة إلا صدقتني من أكل الرغيف؟ قال: لا أدري، فمرا حتى وصلا إلى البحر فأخذ عيسى عليه السلام يده، ومر به على الماء، فقال اليهودي: هذا أعجب

---

(١) وعن سيدنا علي – كرم الله وجهه –: لو كشف عني الحجاب ما ازددت يقينًا.

فأقسم عيسى عليه بذلك من أكل الرغيف؟. قال: لا أدري. فانطلقا حتى وصلا إلى أرض رمل فجمع عيسى عليه السلام بعض الرمل ثم قال: كن ذهبـــا بـــإذن اللّـــه تعالى فكان؛ فقسمه ثلاثة أقسام: فقال: قسم لي، وقسم لـــك، وقـــسم لمـــن أكـــل الرغيف. فقال اليهودي من محبة الدنيا: أنا أكلت الرغيف يا رسول اللّـــه. فقـــال عيسى عليه السلام: يا عدّو اللّه رأيت عدة آيات فلم تقر فلما رأيت الدنيا أقـــررت يا مشئوم دنياك هذه كلها لك. ومر عيسى عليه السلام فجاء رجلان فرأيا اليهودي فأرادا قتله، فقال: لا تقتلاني نحن ثلاثة فلكل ثلث. ثم قالوا: نبعث واحدا ليـــشتري لنا طعاما فذهب واحد فاشترى الطعام وخلطه بالسم، وقـــال فـــي نفـــسه يـــأكلان فيموتان ويكون المال كله لي، والرجلان عزما على قتله إذا أتى بالطعام ليكـــون المال بينهما، فلما رجع شدا عليه وقتلاه، ثم جلسا وأكلا الطعام فاستلقى كل واحد ميتا، فمر عيسى عليه السلام عليهم فرآهم على تلك الحالة والمال موضوع بينهم فقال: أفٌ لك يا دنيا ما أشأمك.

(حكاية): مات رجل في بني إسرائيل وخلف ابنين فاختصما في قسمة جدار فسمعا صوتا: لا تختصما؛ فإني كنت كذا وكذا سنة ملكا، وكذا كذا ســـنة أميـــرا، وكذا وكذا صاحب مملكة، ثم مت، وخلطت بالتراب ثم صنع مني فخارة. فبقيت كذا كذا سنة. ثم كسرت فبقيت كذا كذا سنة. ثمّ عملوا مني لبنة فلم تتخاصمان لأجـــل الدنيا المذمومة، والسلام.

اللهم ارزقنا رزقا طيبا بغير تعب عليه في الدنيا، ولا حساب ولا عقاب عليه في العقبى، آمين، واللّه أعلم.

الباب التاسع

في مقالات الناس في الدنيا

قال الإمام الشافعي ﷺ: «لو كانت لي الدنيا بعتها برغيف، وذلك لما أعلم من عيوبها وآفاتها». وقال أبو حنيفة ﷺ: «الدنيا أحدوثة؛ فكن أنت من أحسن أحاديثها». وقال أحمد ﷺ: «من أراد أن يكون عزيزا في الدارين؛ فليزهد في الدنيا». وقال مالك ﷺ: «ما رغب أحد في الدنيا إلا انصرف عنها بندم وخجل وحسرة». وقال سفيان الثوري: «وجدت الراحة والأنس في الخلوة والزهد في الدنيا، ووجدت الغموم والأحزان في مخالطة الناس، والرغبة في الدنيا». وقال داوود الأصفهاني: «من رغب في الدنيا حرم الحكمة». وقال الأشعري: «من رغب في الدنيا فقد أحب ما أبغضه اللّه تعالى وأنبياؤه وخالف الأنبياء والصالحين». وقال علي ﷺ: «من هوان الدنيا وحقارتها أن اللّه أخرج أطايبها من خسائسها».

فالدنيا سبعة أشياء: مأكول، ومشروب، وملبوس، ومشموم، ومنكوح، ومسموع، ومبصر. أما المأكولات: فأشرفها العسل وهو لعاب ذباب. وأطيب المشروبات الماء، ويستوي في شربه الآدمي والكلب، والخنزير. وأفضل الملبوسات الإبْرَيْسم[1] وهو لعاب دودة. وأشرف المناكح النساء وحقيقتها مَبَالّ في مبال. وأشرف المشمومات المسك وهو دم غزال. والمسموع والمبصر مشترك بينك وبين البهائم. اللهم ارزقنا من عندك رزقا ولا تجعله استدراجا علينا يا اللّه.

---

(١) الإبْرَيْسَم: نوع من الحرير.